تمهيد

قراءة فى تداعيات المواجهة وسوء الفهم المتبادل بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى

●● يأتى هذا «الكتاب» فى إطار الرد على الافتراءات الغربية المتواصلة ضد الإسلام والمسلمين . . بدءاً من ادعاء انتشار الإسلام بالعُنْف والإكراه . . واتهامه بمعاداة العقل وإهدار الحريات . . إلى اتهام المسلمين بالانغلاق والتطرف والإرهاب وغيرها من الادعاءات والاتهامات التى تُثار من حين لآخر فى سعى دءوب للإجهاز على ما تَبَقَّى لدى الأمة المسلمة من مناعة فى مواجهة حملات التشويه . . انطلاقًا من «ميراث الخوف والعداء» المتغلغل فى أحشاء الغرب تجاه الإسلام ونبيِّه الكريم . . لكن وفى مواجهة هذه الصورة القاتمة نجد عدداً من المفكرين الغربيين ـ ممن يتسمون بروح نقدية عالية ـ يردون للإسلام اعتباره، ويُشيدُونَ بحضارته، ويضعونه محل تقدير . . ويدعون إلى الحوار بين الحضارات والسلام بين الأديان . . ويطالبون بقيام علاقات جديدة للتفاهم بين العالمين الغربى والإسلامى ـ بعد تنحية الماضى جانبًا بما فيه من صراعات وأحقاد ـ لإيجاد حاضر أفضل يعترف بالتعدد والتنوع الخلاَّق فى ظل أخلاق مشتركة وقيم إنسانية عالمية .

. . . وفى حقيقة الأمر ـ لم يكن لمثل هذه الافتراءات أن تتجدَّد أو تُثار لولا حالة العجز المُهين التى تضرب أمَّةَ الإسلام فباتت مرتعًا للاستبداد والقهر والفساد . . ونهبًا للأزمات من كل اتجاه . . فمن أزمة الثقافة والحضارة . . إلى أزمة الديمقراطية والحرية . . وبينهما أزمة الفرد والجماعة حُكَّامًا ومَحْكُومين . . هذه الأزمات أصابت المجتمع الإسلامى بالركود . . فانكمشت إنسانيته . . وفقد حيويته وقدرته على المقاومة

والتغيير باستثناء نماذج قليلة، نذكر منها، **«ماليزيا»** التى تمكنت من كسر حاجز التخلف بفضل إرادة التغيير لدى قيادتها الواعية.. ممثلةً فى الدكتور «مهاتير محمد» وفكره الإسلامى المستنير.. و **«تركيا»** فى ظل التجربة الفريدة لحزب الرفاه الإسلامى بزعامة «نجم الدين أربكان» ومشروعه لإقامة نظام إسلامى عادل لا يخضع للنفوذ الغربى.. والانقلاب العسكرى العَلْمانى عليه لإقصائه، ومن ثم تغيير المسار إلى حزب «العدالة والتنمية» بقيادة «أردوغان».. الذى نجح فى تنشيط الدور التركى على مسار العلاقات بين الشرق والغرب.. والاهتمام بالعمق الجغرافى والتاريخى لتركيا عربيًا وإسلاميًا.. بالإضافة إلى الإنجازات الاقتصادية الكبيرة التى تحققت منذ توليه السلطة.. و **«إيران»** بعد نجاح ثورتها الإسلامية منذ أكثر من ربع قرن.. وما شهدته منطقة الخليج على مدى هذه السنوات من حروب وصراعات إقليمية ودولية.. انتهت بسقوط العراق فى أيدى الأمريكيين.. وما تتعرض له حاليًا من عقوبات «أمريكية ـ أوروبية» متصاعدة.. وما تواجهه من تهديدات إسرائيلية بالحرب والتدمير بسبب طموحاتها النووية.. وسعيها للمشاركة فى إنجازات العصر العلمية والتكنولوجية ـ باعتبارها من القوى المعادية الرافضة للهيمنة الغربية.. **وكلها دول إسلامية ليست عربية.. استلهمت «النهج والتصور الإسلامى» بشكل أو بآخر فى سعيها الدؤوب لبلوغ النهضة.. وإيجاد الفرص الحقيقية للتحرر والتنمية.**

... **«والنموذج الماليزى»** ـ على الرغم من تعرضه لانتقادات غربية بسبب تحديه (لشروط العولمة) وتغليبه لمصلحته الوطنية ـ نرى فيه «النموذج الأنسب» للنهوض بدول وشعوب العالم العربى والإسلامى.. نظرًا لتقديم هذا النموذج تفسيرًا حضاريًا للإسلام، وانتهاجه سبيل المعرفة «بالتفتّح على كل ثقافة.. والتعلم من كل حضارة».. فى إطار من التسامح مع الآخر والتعايش بين العلم والدين اعتمادًا على التخطيط المحكم والإدارة الواعية بما تتصف به من كفاءة وفعالية(*).. فهذا النموذج

(*) المقصود (بالتعايش) بين العلم والدين ـ من وجهة نظر المؤلف ـ هو عدم وجود تضاد بين الدين والعلم.. والدين الإسلامى على وجه الخصوص يحث على العلم وبذل الجهد فى تحصيله.. ويدعو إلى إعمال العقل.. والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض.. والنظر فى إبداعات الكون بما أودع فيه الخالق العظيم من سنن وقوانين.. كما ارتفع الإسلام بمكانة العلماء.. فجعلهم ورثة الأنبياء انطلاقًا من كونه رسالة هداية ورحمة للعالمين.. ونسق حياة متكامل يقوم على الحق والعدل والتسامح وحرية الفكر.. وتشريعاته تتوجه لتحقيق مصالح العباد والحفاظ على كرامة الإنسان فى إطار من القيم ومكارم الأخلاق ـ بعيدًا عن الظلم والاستبداد والفساد والطغيان ـ فهو دعوة للتفكر والعلم والمعرفة.. ولكنه ليس مختبرًا للبحث والاكتشافات العلمية، ويوضح «الأستاذ العقاد» فى كتابه «الفلسفة القرآنية» العلاقة بين العلم=

يُجنِّب الأمَّة المخاطر التى تحيط بالنماذج الأخرى **«فالنموذج التركى»** يعانى من «صراع الداخل» بين العلمانيين والإسلاميين . . وما يؤدى إليه هذا الصراع من إجهاد وإرباك لحركة الدولة والمجتمع . . أمَّا **«النموذج الإيرانى»** فإنه يَتعرَّض «لضغوط الخارج» من جانب القوى الغربية واحتمالات الصدام بين الجانبين . . هذه التداعيات الداخلية والخارجية ـ بما لها من تأثيرات سلبية محفوفة بالأخطار ـ ربما تُهدِّد بإجهاض مشروعات وتجارب النهوض ـ التى سَبَقَ وأن تم إجهاضها من قبْل فى المنطقة العربية الإسلامية على مدى القرنين الماضيين ـ لنفس العوامل والأسباب . . من **«الصراع السياسى والثقافى وما يصحبه من انعدام الوعى فى الداخل» . . إلى «التآمُر المتربص والتهديد القادم من الخارج»** .

. . . وإذا نظرنا إلى مسار حركة التاريخ فيما يتعلق بعلاقات الغرب بالإسلام ـ فى لمحات وجيزة ـ يُمْكننا التمييز بين «مراحل ثلاث» : **أولى هذه المراحل** نجد فيها أن العالم المسيحى كان يَخُص العالم الإسلامى باهتمام كان يفوق ما يتلقاه منه . . فكانت عوامل الخوف والعداء والإعجاب وجاذبية المجهول تعيش كلها مجتمعة فى عالم مسيحية العصور الوسطى . وكانت غرابة العالم الإسلامى ملموسة بوضوح لدى النصرانية الغربية . فكان الاهتمام الشعبى يتركز حول شخصية النبى محمد، والنظر إلى الإسلام باعتباره فرقة مسيحية مارقة . وكان كل مزيد من العلم والفهم لرسالة الإسلام تقف دونه تلك الكراهية المتزايدة التى كانت الحروب المتواصلة تعمل على زيادة حدتها ـ على أن هذه الحالة لم تمنع الروم البيزنطيين من احترام خصمهم العظيم المتمثل فى «الإسلام» بل وتقديره فى بعض الأحيان ؛ لأن قيام الدولة الإسلامية كان

=والدين بقوله : «القرآن الكريم كتاب عقيدة يُخاطب الضمير ، وخير ما يُطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يُحث على التفكير» . . . أمَّا عن تفسير العلم بالدين ـ كما يحدث الآن ـ فهذا ما لا نقصده . . لأن هناك من يذهب إلى تأكيد الارتباط بين ظواهر العلم وحقيقة الدين . . أو إثبات مصداقية الدين بما يأتى به العلم من اكتشافات . . . . بل إن هناك من يذهب إلى تبرير حالة الضعف والتبعية للآخرين من جانب المسلمين ـ بأن هناك من يعمل فى خدمتهم . . فينتج ما يستهلكون وهم مستريحون ! ! هذه التصورات أقل ما توصف به أنها «ليست صائبة» حيث تؤدى للأسف الشديد إلى وجود «شعور زائف» بالرضا لدى الجماهير عن حالة القعود والعجز والتقصير عن المشاركة فى ميدان العلم إبداعًا وإنجازًا . . هذا الوعى الزائف يؤدى إلى استمرار حالة التواكل واعتمادهم على غيرهم فى تدبير شئون حياتهم . . مع أن البديهيات تقول إن المجتمع الذى لا يعمل ولا يجتهد ولا يتعلم . . ويكتفى باستهلاك إنتاج الآخرين ـ هو مجتمع بعيد كل البعد عن حقيقة الدين . . . وفى كل الأديان اقتضت حكمة الله خلق الإنسان لتعمير الأرض بالسعى والكد . . ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

بمثابة الحافز الجديد لحضارة الرومان. ويلاحظ المراقب لهذه العلاقة كيف أن هيبة العرب المسلمين بلغت ذروتها فى الحاضرة البيزنطية «القسطنطينية» فى نفس الوقت الذى بلغت فيه العلوم والأفكار قدراً كبيراً من الرواج فى **«بغداد»** حاضرة الخلافة الإسلامية آنذاك!!!

. . . وجاءت **«المرحلة الثانية»** التى شهدت الحروب الصليبية واندفاع الجيوش الأوروبية باتجاه الأراضى الإسلامية بسبب حالة الاضطراب والفوضى التى سادت بلاد الشام، والتناحر بين الخلافتين العباسية والفاطمية وما يتبعهما من ممالك وإمارات إسلامية، لكن الحملات الصليبية على بلدان المشرق الإسلامى جاءت لتشحذ من همة العالم الإسلامى للوقوف فى وجه هذه الحروب التى كانت تمثل إحدى قنوات الاحتكاك بين الحضارتين الغربية والإسلامية ـ كما يشير فيلسوف الفكر الإسلامى الراحل الدكتور «حامد ربيع» إلى أن: «هذا الاحتكاك الذى نتج عن هذه الحروب إنما قام على أساس التعامل المباشر من خلال التواجد الفعلى للصليبيين على الأرض العربية الإسلامية فى مناطق المشرق التى تمثل مواقع الإنتاج الحقيقى للفكر الإسلامى . . ثم قيامهم بالعودة بذلك الجزء من التراث الإسلامى إلى الأراضى الأوروبية» ـ فالتبادل الثقافى الفكرى والعلمى بين المسلمين والغزاة على مدى سنوات الحروب الصليبية يمثل صورة من صور التفاعل الحضارى بين الجانبين. . وتأتى المواجهة بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا المسيحية منذ فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ـ من وجهة نظرنا ـ بمثابة امتداد طبيعى لمرحلة الحروب الصليبية ورد فعل لها من الجانب الإسلامى. . هذا الرد جاء على أيدى العثمانيين الأتراك الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على مناطق شاسعة فى جنوب شرق ووسط القارة الأوروبية.

. . . ثم تأتى **«المرحلة الأخطر»** فى ظل تدهور العالم الإسلامى وتعرضه لحركة الاستعمار الأوروبى من أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ـ وإلى الآن ـ نظراً للخلل الحادث فى التوازن بين الجانبين. . يوضح الكاتب الفرنسى «جاك فريمو ـ Jacques Fremeux» فى حديثه عن «المقدمة التاريخية» لحركة الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر للمنطقة العربية الإسلامية: «. . لم يكن العالم الإسلامى فى ذلك الوقت أقل ازدهاراً من العالم الغربى رغم الأقاويل والمزاعم الاستعمارية . . بينما لم يكن التفكير العلمى والابتكار التقنى قد تقدما فى عالم الإسلام إلا قليلاً جداً منذ «العصر

الذهبى» للحضارة الإسلامية المتمثل فى القرون الهجرية الخمسة الأولى؛ لأن حركة الأفكار فى العالم الإسلامى لم تُؤد إلى تلك الزلزلة العملاقة التى تشكلها «فلسفة التنوير» بالنسبة للغرب. كما أن رغبة الاختراع والتحديث التى تُميز الفئة الأكثر نشاطًا من المقاولين والتجار الأوروبيين كانت نادرة فى العالم الإسلامى. ونتج عن ذلك أن الشروط الضرورية من أجل نشوء الاقتصاد الرأسمالى والمجتمع الصناعى لم تكن متوفرة أو مجتمعة فى العالم الإسلامى ـ وشكَّلَ ذلك عامل اختلال تم حجبه بواسطة الوعى الحاد لدى الجانبين بالانتماء إلى عالمين دينيين وثقافيين وسياسيين مختلفين فى كلٍّ من ديار الإسلام والغرب الأوروبى..».

... وجاءت حركة الاستعمار الأوروبى تعبيرًا عن «إرادة غربية» تسعى للسيطرة على العالم ومن بينها المنطقة العربية الإسلامية الخاضعة للنفوذ المتداعى للإمبراطورية العثمانية، حيث رأت الحركة الاستعمارية أنها الوريث المرشح لخلافة الإمبراطورية الآفلة.. لكن وللأسف الشديد فإن هناك من العوامل التى ساعدت الغرب الاستعمارى على تحقيق أهدافه فى المنطقة، وهى عوامل تعود إلى العالم الإسلامى ذاته الذى تراجع إبداعه الحضارى نتيجة للجمود الفكرى الذى أصابه ـ واستنامته إلى انتصاراته القديمة.. وإطباق الغفلة على أرجائه، وانعدام الوعى بما يجرى فى العالم الخارجى من تطورات ـ لا سيما نهضة الغرب الأوروبى ـ هذا بالإضافة إلى رضوخه لحكام مستبدين تَسببوا فى إنهاكه واستعباد أبنائه.. هذه العوامل أطلق عليها المفكر الإسلامى «مالك بن نبى»(*) حالة «القابلية للاستعمار» التى ساهمت فى نفاذ الإرادات الاستعمارية وإنجاح مخططاتها فى تكريس عمليات النهب الاقتصادى والتشويه الثقافى والتَفسُّخ الاجتماعى.. وفرض الهيمنة العسكرية والتبعية السياسية على

(*) المفكر الإسلامى «مالك بن نبى» وُلد بمدينة قسنطينة الجزائرية عام ١٩٠٥.. سافر بعد إتمام الدراسة الثانوية إلى باريس لدراسة الهندسة، حيث تخرج مهندسًا كهربائيًا عام ١٩٣٥.. مكنته ثقافته المنهجية من تحليل ظاهرة «التخلف» باعتبارها قضية تتعلق بالحضارة.. فوضع كل مؤلفاته تحت عنوان «مشكلات الحضارة» ـ أصدر خلال إقامته بباريس عددًا من المؤلفات الهامة بالفرنسية منها: «شروط النهضة ـ الظاهرة القرآنية ـ وجهة العالم الإسلامى».. لجأ للقاهرة فى عام ١٩٥٦ إبان اشتعال ثورة التحرير الجزائرية.. فكانت إقامته بمصر فرصة لترجمة مؤلفاته إلى العربية ـ ثم انتقل إلى الجزائر عام ١٩٦٣ بعد استقلال بلاده ليتولى منصب «مدير عام التعليم العالى» إلى أن استقال من منصبه عام ١٩٦٧ ليتفرغ لأعماله الفكرية وأنشطته الثقافية حيث أصدر كتابه الهام «مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى» وظل بقية حياته متفرغًا لعالم الفكر والثقافة حتى وفاته بالجزائر فى ٣١ أكتوبر ١٩٧٣. [المؤلف].

مقدرات الأمة الإسلامية . . هذه العمليات المستمرة ـ إلى يومنا هذا ـ هى بمثابة «هزيمة من الداخل» لأنه على الرغم من مرور ما يُقَارب قرنين من الزمان على إخضاع العالم العربى الإسلامى للنفوذ الغربى ـ الأوروبى ثم الأمريكى ـ لم تتمكن الأمة الإسلامية من الخروج من حالة التشرذم والانقسام لصياغة **«مشروعها الحضارى الإسلامى للنهوض» . . هذا المشروع الذى أثبتت وقائع وأحداث العقود الماضية أنه لن يتحقق النهوض بدونه بعد فشل التجارب والمشروعات المتعددة للنهضة والتنمية المستمدة من «النموذج الغربى» بشقيه الاشتراكى والرأسمالى . . فهذه التجارب وتلك المشروعات إنما هى امتداد بشكل أو بآخر لحالة «الانهزام من الداخل» وانعدام الثقة فى الذات الحضارية .**

. . . وإذا كانت «الأمَّة الإسلامية» تواجه فى المرحلة الراهنة مخاطر وتحديات ـ لم تَعْهَدها من قبل ـ من معاول الهدم والتخريب فى الداخل . . إلى موجات التحلل والاختراق القادمة من الخارج . . ومن التشوهات الناجمة عن التبعية والتغريب . . إلى الانغلاق والجمود والتَهَرّب من الإجابة على «تساؤلات العصر» رغم تَوفّر الإجابات فى الإسلام . . فإن هذه الأمَّة لن تتمكن من الوقوف على قدميها لمواجهة هذه التداعيات ما لم تعمل باجتهاد على إحياء ما لديها من «مقومات» . . فَتُبادر بالعودة إلى هَدْى نَبيِّها الكريم تستلهم منه مكارم الأخلاق التى بعثه الله لإتمامها . . ونُبْل القيم فى أرقى معانيها . . وعظمة الإنسانية المسلمة التى اجتهدت فى أداء رسالتها ـ فهى وإن كانت «رسالة دينية» جوهرها التوحيد الخالص لله . . فإنها وفى المقام الأول «رسالة حضارية» منهجها الالتزام بالقيم الإنسانية للشريعة الإسلامية من «حرية وعدالة وتشاور ومساواة وتسامح وتكافل ودعوة إلى التعاون والإحسان والخير والبر . . وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر والشر» وحَثٌ عليها القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام الخالد ـ للارتقاء بأحوال المسلمين ورسالة الإنسان فى الحياة .

. . . **ولن تُحقق الأمَّة آمالها فى الحفاظ على شخصيتها واستعادة قوتها ووحدة عقيدتها ما لم تعتبر بما جرى عبر تاريخها من «أحداث جسام» بين انتصارات ونكبات، تستمد منها عناصر القوة وصلابة الصمود وأصالة التقاليد** . . وإذا كان دور «الأمَّة» تم التَنكّر له فى مجريات هذا التاريخ، فعليها بالبحث فى تُراثها الفكرى الثرى عن «دورها

الحضارى» لتواجه ما تعانيه فى حاضرها من تراجع وانهزام . . هذا التراث الذى أبدعته ثقافة يانعة وحضارة زاهرة لا مثيل لها بين الثقافات والحضارات بعيداً عن تُراث الخنوع والتملّق والتعصُّب والجمود . . الذى أعْلَتْ من شأنه فَأوْرَثها ما تتخبط فيه من بوار وركود، وضياع وحدة الأمة فى «صراع مذهبى عقيم» ـ فما جدوى الخلاف بين شيعة وسنّة؟ . . فالمسلمون دينهم واحد ويعبدون ربّا واحداً ورسولهم واحد ويتجهون إلى قبلة واحدة، فلماذا يُخَالفُون هَدْى القرآن الكريم . . الذى يُخَاطبهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾(*) [الأنبياء: ٩٢] . . وهُنا يأتى دور «علماء الإسلام البارزين» فى التقريب بين المذاهب الإسلامية . . وَوَصْل ما انقطع بينها بالفهم والحوار . . والابتعاد عن التعصب للمذهب الذى يسىء للإسلام . . ويُهَدِّد كيان الأمة بالتفكّك والزوال .

. . . وعلى العرب والمسلمين عدم نسيان «تحذير» المفكر الراحل الدكتور جمال

(*) أشار العديد من المفسرين فى معنى الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ . . إلى أن «الأمة» وردت هنا بمعنى الدين والعقيدة أى الإسلام ـ وانفرد الإمام القرطبى فى تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» بقوله: «المقصود هو أمة الإسلام فى حالة اجتماعها على الحق وعلى التوحيد . . فإذا تفرقتم وخالفتم، فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق» وجاء «الخطاب القرآنى» مسميًا «الأمّة» وليس «الدولة» فلمَ يقُل «وهذه دولتكم» لأن الأمة فى الإسلام هى أساس الكيان الجماعى الذى يرتكز على العقيدة الإيمانية ـ فالأمة ترتبط بالعقيدة أكثر من ارتباطها بالدولة التى ترتبط بدورها بالمصالح والأهداف السياسية ـ وحتى وإن كان الحفاظ على كيان الأمة من أهم مهام الدولة ـ ولم يعرف التاريخ الإسلامى دولة واحدة موحدة إلاّ فى البدايات الأولى للدولة الإسلامية، بينما أدت الانقسامات السياسية والصراع على السلطة إلى ظهور دول متعددة . . قامت وقويت ثم تلاشت وانتهت . . وبقيت الأمة رغم تبدل أحوالها بين القوة والضعف أو الازدهار والانحدار . . فالأمة لم ترتبط بشكل تنظيمى محدد، لكنها ارتبطت بالعقيدة . . فهى الرباط الروحى الذى يجمع بينها . . وهى ـ الأمة وليست الدولة ـ التى حملت عبء الدعوة وإقامة الحضارة . . وفى عصرنا الراهن ـ عصر أزمة المسلمين ـ يمكن للأمَّة تقديم «البديل» عن استحالة قيام دولة إسلامية واحدة . . هذا البديل يتمثل فى التضامن والتآزر وتعميق روح الإسلام، واتباع منهجه وإحياء قيمه وأخلاقه لاستعادة دورها الحضارى المأمول فى هداية البشرية إلى الحق والخير . . بالتزكية والإيمان . . لهذا فإن مجىء معنى «الأمَّة» فى الآية ـ مرادفًا للعقيدة ـ أمر له دلالته ـ على الأهمية التى يوليها الإسلام «للأمَّة» وليس «للدولة» ـ حفاظًا على العقيدة وعدم التَفرّق شيعًا حولها . . فالدولة حتى وإن ذهبت بقيت الأمَّة . . فالأمَّة باقية ما بقيت العقيدة . . فإن ضاعت العقيدة هَلَكَت الأمَّة . [المؤلف].

حمدان الذى أشار فيه إلى مخططات الاستعمار الغربى القديم منه والحديث وسياسته المزدوجة . . **التى تستهدف «تدمير الوحدة القومية للعرب، وبنفس القدر تدمير الوحدة الدينية للمسلمين»** . . ولا يكونوا أداته التى يحقق بها أهدافه . . وللأسف فقد نجح فى ذلك إلى حد بعيد .

. . . ولن تتبوأ الأمَّة مكانتها التى تليق بها بين الأمم ما لم تعمل على تصحيح «مفاهيم عقيدتها وثقافتها» التى تُشكِّل حركتها فى الحياة . . بدءاً من مفهوم **«لا إله إلا الله» باعتباره المدخل الحقيقى لعزتها وحريتها . . فلا معبود بحق سوى الله . . «لأن السفهاء والأتباع يُمجدون الحكام . . بينما لا يمجد الأحرار إلا الله» كما يقول المفكر** الإسلامى الراحل الدكتور «على عزت بيجوفيتش» . . وصولاً إلى مفاهيم «الجهاد» و«الحرب» و «السلام» . . . فإذا كان «الجهاد» يُمَثِّل الذّروة فى بناء الإسلام . . لأن مجاله الرحب «الدعوة إلى الله» على بصيرة . . وأدواته «الحكْمة والمعرفة والعلْم» ـ بينما تظل «الحرب» هى الاستثناء ـ فلا يتم اللجوء إليها إلا بشروطها : لدَفْع ظُلم وإحقاق حق . . أو مواجهة عدوان . . وتحكُمُها إذا اندلعت قواعد صارمة تفرضها قيم وأخلاق الإسلام . . أمَّا «السلام» فهو القاعدة والأساس فى بناء الإسلام . . بل هو أصله وجوهره . . وأدواته الرحمة والتسامُح والعَدْل . . فالهدف والغاية من «رسالة الإسلام» ـ بعد إعلاء كلمة الله ـ نشر السلام . . والارتقاء بالعلم والعلماء . . والحفاظ على كرامة الإنسان .

* . . . ويا للمفارقة فى حياة «أمة الإسلام» . . ففى عصور الازدهار كانت راية «السلام الإسلامى ـ Pax Islamica» ترفرف على العالم . . فكان العلماء من كافة أنحاء المعمورة يفدون إلى الحواضر الإسلامية لتقديم علومهم ومعارفهم للمسلمين . . وكانت أنظارهم وآمالهم مُعلّقة على حاضرة الخلافة «بغداد ـ دار السلام» حيث يجدون رغد العيش . . ويلاقون الحفاوة والإكرام . . أين ذلك مما نراه ونعايشه الآن . . ؟؟!! . . فالعلماء المسلمون يفرون من أوطانهم التى ربما يهجرونها للأبد «هجرة أو نزيف العقول» إلى مراكز الحضارة والعلْم فى عواصم الغرب التى توفر لهم فرص العمل

اللائق بهم . . وتهيئ لهم إمكانات البحث وحرية الرأى والفكر . . وما يتطلعون إليه من تقدير وتكريم . . بل وأين هى «بغداد» نفسها اليوم؟ . . وقد تحولت من «دار السلام» إلى «دار العنف والدمار» بَعْدَ سقوطها فى هاوية الاحتلال .

*** . . . لقد بات العالم الإسلامى ـ وفى القلب منه «العالم العربى» ـ نَهْبًا لجشع «سماسرة الداخل» . . وأطماع «وكلاء الخارج» الذين تمكنوا معًا من جعله «مستودعًا» لنفايات حضارة الغَرْب . . ورُكَامًا لمخلفاته، بعد أن «صار عالقًا فى صنَّارة نظام السوق الغربى» على حَدْ وَصْف الدكتور «إدوارد سعيد» دون التفات إلى تداعيات هذا النظام ومآسيه . . وما قد يُسببه من كوارث وأزمات .**

. . . بينما نشاهد «الأمم» التى أفسحت المجال لإبداعات العلم وإنجازات العلماء . . ونهضت بالفكر والتعليم . . وأعادت الاعتبار لقيم الصدق والعمل وحُسْن الاختيار . . وبادرت إلى إرساء قواعد التنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى من : [حُريات سياسية . . وشفافية اقتصادية . . وعدالة اجتماعية] . . قد تحرَّرت من قيود التخلف والجمود . . واستبدلت التبعية بالندِّية فى علاقاتها الدولية . . وتمكنت من السير فى الطريق الحقيقى للإصلاح والنهوض .

*** . . . ولن يتمكن المسلمون من الخروج من مأزقهم الثقافى والحضارى الراهن ما لم يكونوا قادرين على فهم حقيقة الحضارة الغربية كظاهرة عالمية مُركَّبة، فبقدر ما لهذه الحضارة من إنجازات علمية باهرة . . فإن لها تداعيات كارثية عديدة ومخاطر مُدَمِّرة . .**

. . . ولا بد للمسلمين من معرفة «الوجه الآخر»(*) لهذه الحضارة التى أوقعتهم فى أسْرها . . والتبعية لها . . فهاموا بها، وبالغوا فى تقليدها . . هذا الهيام والافتتان بحضارة الغرب، هو السبب الرئيس لانهزامهم أمامها . . والعامل الأساسى فى تخاذلهم وعجز إرادتهم عن بلوغ النهضة التى يتطلعون إليها ـ متجاهلين أن نهضتهم

(*) للتعرف على الوجه الآخر للحضارة الغربية ـ انظر موضوع «تداعيات حضارة الغرب» [ص٧٧، ٧٨] .

الحقيقية لن تتم فى غير إطار «التصور الإسلامى» بقيمه ومبادئه اعتماداً على «المقومات الذاتية» للأمة الإسلامية وعلى صورة مخالفة للنمط الغربى فى التقدم والتنمية.

. . . فهل نُبَادر أفراداً وجماعات إلى الالتزام بإحياء مقومات الأمة المسلمة.. وإعطاء الفرصة «لقيم وأخلاق الإسلام»(*) لتتعهد شئون الحياة المادية والروحية فى المجتمعات الإسلامية ـ هذه القيم والأخلاق التى نهضت بها «حضارة الإسلام» فى عصور التفتّح والتألق والازدهار.. وتراجعت عنها فى عهود الجمود والتَأزّم والانكسار.

المستشار/ سليمان عبد الغفار

القاهرة فى ٥ ربيع أول ١٤٢٩ هـ

١٣ من مارس ٢٠٠٨ م

(*) إن دعوتنا لإصلاح المجتمعات الإسلامية «بقيم وأخلاق الإسلام» لا تنطلق من الانتماء لأى حزب سياسى أو دينى ـ فلا علاقة لنا بهذا أو ذاك من قريب أو من بعيد ـ إنما تنبع دعوتنا هذه من «قناعة فكرية» تكونت عَبْرَ سنوات من التأمل فى أحوال المسلمين بأنه لا مجال للإصلاح دون تفعيل قيم وأخلاق الإسلام فى حياة الناس.. لا سيما القيم الأساسية فى العدالة والحرية والتسامح والتكافل فى إطار «الوسطية» التى تُميِّز الشريعة الإسلامية... بعيداً عن مظاهر «التديُّن المغشوش» التى تُسىء للإسلام والمسلمين فى أنظار الآخرين... ولن ينجح المسلمون فى شىء من ذلك ما لم يُدْركوا ـ عن فهم وعلم ـ أن رسالة الإسلام فى جوهرها «رسالة حضارية وأخلاقية» على الرغم من كونها «رسالة دينية».. فهى تجمع بين الدّنيا والدين فى كيان واحد متوازن يُعَبِّر أصدق تعبير عن إنسانية الإنسان. [المؤلف].